دراسة في مفهوم الهوية

حبيب صالح مهدي
هيئة التعليم التقني

مستخلص البحث:

بعد كل دورة زمنية في التاريخ تبرز حاجة المجتمعات لتأكيد ذاتها، أو مراجعة انتمائها. المجموعات البشرية تؤطر هذا الانتماء بملامح المشتركات الإنسانية فيما بينها، وتسمي هذا الانتماء بما يدل على الهوية كمضمون المواطنة ومفهوم الهوية، هدف المفاهيم السياسية الحديثة، برزت ضمن اطر من الروابط والمصالح المشتركة. الجغرافية ، والتاريخ والمصالح المشتركة، هي من الروابط الأساسية وفي بعض الأحيان تعبر الهوية إلى أوسع من ذلك أو تتمحور على نطاق أضيق من ذلك.

الهوية القومية أو الهوية الدينية أو الهوية العرقية أو الهوية الطائفية، هي نماذج للهوية الضيقة، ولكن هناك نموذج أوسع من ذلك عندما تكون الهوية جامعة لأكثر من قومية وأكثر من دين أو أكثر من عرق وأكثر من طائفة، وبهذا تتجاوز الهوية إطارها الضيق لتعبر عن المشترك الأوسع في الانتماء، وهي الهوية الوطنية التي تنتمي لجغرافية وتاريخ ومصالح مشتركة.

المقدمة

بعد كل دورة زمنية في التاريخ تبرز حاجة المجتمعات لتأكيد ذاتها، أو مراجعة انتمائها. المجموعات البشرية تؤطر هذا الانتماء بملامح المشتركات الإنسانية فيما بينها، وتسمي هذا الانتماء بما يدل على الهوية كمضمون المواطنة ومفهوم الهوية، هدف المفاهيم السياسية الحديثة، برزت ضمن اطر من الروابط والمصالح المشتركة. الجغرافية، والتاريخ والمصالح المشتركة، هي من الروابط الأساسية وفي بعض الأحيان تعبر الهوية إلى أوسع من ذلك أو تتمحور على نطاق أضيق من ذلك.

الهوية القومية أو الهوية الدينية أو الهوية العرقية أو الهوية الطائفية، هي نماذج للهوية الضيقة، ولكن هناك نموذج أوسع من ذلك عندما تكون الهوية جامعة لأكثر من قومية وأكثر من دين أو أكثر من عرق وأكثر من طائفة، وبهذا تتجاوز الهوية إطارها الضيق لتعبر عن المشترك الأوسع في الانتماء، وهي الهوية الوطنية التي تنتمي لجغرافية وتاريخ ومصالح مشتركة.

تقترب أوربا يوما بعد آخر لتشكل الهوية الأوربية المبنية على المصالح المشتركة والتي تتقدم بخطى سريعة وثابتة، بالرغم من اختلاف شعوبها في القومية والدين واللغة، وغيرها من الاختلافات البينية. وهناك مجتمعات أخرى تشكلت بفعل الهجرة والاستيطان لتشكل أقوى الدول وبهوية وطنية تحاول ترسيخها بمختلف الطرق، وهي الولايات المتحدة الأمريكية. وهناك أيضا مجتمعات بنيت على أساس التفرقة والتمييز العنصري بين أعراق مختلفة (أوربية– أفريقية– آسيوية) لتشكل دولة جنوب أفريقيا، وبهوية وطنية جديدة، بعد أن غادرت عنصريتها كنظام سياسي لتصبح من أهم الدول الإفريقية، وهي تصنع هويتها ببطيء بعد خطوات موفقة في المصالحة والاندماج وولوج الديمقراطية كبوابة للنجاة وقبول الآخر. وها هي دولة

إسرائيل تجمع الشتات من مختلف إرجاء الكون تحت لافتة عنصرية دينية لتخلق منها دولة بهوية يهودية.

كل هذه النماذج المتباعدة في الانتماء للهوية، أوجدت لها مناخا" من التفاهم لتصنع لها ولأجيالها هوية أساسها المواطنة تدوم بها، فكيف بنا نحن العراقيين كشعب لنا كل المشتركات والروابط التي تؤهلنا لكي نكون هويتنا العراقية الخالصة وأساسها المواطنة ؟

المبحث الأول: مفهوم الهوية

المطلب الأول: المفهوم

الهوية:- هي إحساس فرد أو جماعة بالذات،إنها نتيجة وعي الذات،بأنني أو نحن نمتلك خصائص مميزة ككينونة تميزني عنك وتميزنا عنهم. فالطفل الجديد قد يمتلك عناصر هوية ما عند ولادته بعلاقة مع اسمه وجنسه وأبوته و أمومته ومواطنتيه، وهذه الأشياء في كل حال لا تصبح جزءا من هويته حتى يعيها الطفل ويعّرف نفسه بها[١]. وتعرف المواطنة على أنها (عضوية كاملة تنشأ من علاقة بين فرد ودولة كما يحددها قانون تلك الدولة، وبما تتضمنه تلك العلاقة من واجبات كدفع الضرائب والدفاع عن البلد، وبما تمنحه من حقوق كحق التصويت وحق تولي المناصب العامة في الدولة[٢] والمواطنة دونما اشتراطات تغدو سجنا للحرية والإرادة فدولة المواطنين هي دولة الأحرار، لا دولة العبيد والرعايا، وهي دولة الحقوق قبل إن تكون دولة الواجبات، واشتراط الحرية مقدم على اشتراط التكليف شرعا وعقلا.[٣]

وفي ثورية بليغة يقول (سليم الحص) إنا لبناني، عربي، مسلم، ولا أنسى إنني من البشر إنني من البشر المؤمنين بأن الإنسان أخو الإنسان- إنا لبناني، فروابط المواطنة تجمعني وأبناء وطني، والمواطنة هي عيش مشترك، وانأ عربي، اعتز بانتمائي إلى امة واحدة ومن يجمعني بهم لغة

واحـدة وثقافـة مشـتركة وتـأريخ عريـق ومصـالح متشـابكة وإدراك لوحـدة المصير... وإنا مسلم والدين جسري إلى الإنسانية كوني من البشر، والدين للذي اعتنق هو دين الانفتاح والتسامح، فلا أكراه في الدين، وينهي عن القتل ويوصي بالجنوح إلى السلم، إن جنح الغير له، ويصنف المسيحي بأنه الأقرب مودة للذين آمنوا، ويدعوا إلى العفو، فهو خير للناس، ويجعل الصفح في منزلة الإحسان، ويحكم بأن لا تزر وزارة وزر أخرى، فلا يؤخذ البريء بجريرة المذنب، هذا الدين لا يخاطب قوماً دون أخر، انه دين الإنسانية جمعاء(٤).

إنها كما نرى هدية مركبة إذا ما كان الانتماء قضية أو رسالة، وهي حال تمزق في نفس الفرد إذا ما كان الانتماء في حكم العصبية، وقد جاء الدين ليقضي على العصبيات كلها. الدين في جوهره ابعد ما يكون عن العصبية، بل هو نقيضها بما هو رسالة، وعندما نختصر الدين بالطائفية والمذهبية يصبح عصبية سقطت عنه صفة الرسالة وبالتالي سمّوه عندما يكون الانتماء في مستوى الرسالة لا يعود ثمة متسع في وعاء المجتمع لعصبيات ترتطم وتتصادم، وتغدوا الانتماءات تيارات تتكامل وتتفاعل. الانتماء الوطني، بما هو رسالة عنوانها المواطنة، لا يتعارض مع الانتماء القومي، بل هو رافد له. والعروبة بما هي رسالة وحدة ومنعة وعزة وتنمية، لا تتعارض مع الإسلام بما هو رسالة إنسانية وأخلاقية وإيمانية لا بل إن الدين يرفد القومية بقدر ما يعني ثقافة الأمة وتاريخها وقيمها الإنسانية والحضارية(٥).

ليست العروبة هوية أثنية، والعرب ليسوا هم الإعراب أو المنحدر ون من أهل الجزيرة العربية حصرا إن العروبة رابطة لغة وثقافة وتراث وتاريخ ومصالح مشتركة ووعي واحد. والعربي هو من يتكلم لغة الضاد ومن تجيش

في نفسه روح الانتماء إلى الأمة العربية وتحتضن الأمة العربية مجموعات لا تعود أصولها إلى الجزيرة العربية.

ومنها الأكراد في العراق وسوريا ولبنان، والبربر في المغرب وكذلك السريان والكلدان والأشوريين في العراق وبلاد الشام، كلهم عرب تجمع بينهم رابطة العروبة، أكانوا يشعرون بذلك أو إنهم يريدونها بملء مشيئتهم. ويفاخر العرب بأبطال في تأريخهم بدءا بصلاح الدين الأيوبي وكان كرديا مرورا بطارق بن زياد وكان بربريا وتعود أصول كثير من الأدباء والشعراء وأهل الفكر ورواة الحديث إلى جماعات لم يكونوا من أهل الجزيرة. والعرب هم كل من يتحدث بالعربية ويقول بأنه عربي، وهذا يشمل الأرمن الذين اندمجوا في المجتمع العربي فنطقوا بالعربية وشاءوا أن يكونوا في هذه الأمة بعد أجيال من نزوحهم إليها[٦].

وإذ يجد بعض الكتاب، إن الهوية الوطنية مقوما له دلالته في مذهب أنساني جديد، ليست جوهرا ميتا فيزيقياً أبديا قبليا، ليست ((معطى)) محددا مسبقا ليست تراثا محتوما لا حول عنه مقذوفا به من الماضي ومنيعا لا يؤثر فيه البعد الزمني، ولا المتغيرات التاريخية، بل هو واقع دينامي تأريخي زمني، لجسد تعاد صياغته وتشكيله وتنميته[٧].

الهوية الوطنية لا تكتسب مقدرتها على البقاء فضلا عن مصداقيتها إلا بمقدرتها على التطور والتفاعل مع المعطيات الاجتماعية السياسية والثقافية والتاريخية، وبوعيها لهذه الخصوصية المرنة والانفتاح والاستجابة النقدية[٨].

وبالعودة إلى مفهوم المواطنة فقد تبنى المجتمع المدني ضمن فلسفة الفكر الليبرالي حسب رأي عبد الحسين شعبان، ثلاثية الدولة، المواطن، والسوق متلازمة، فالمواطن والسوق حّيز عام وليس دولة، وكل ما هو ليس حّيزاً عاما هو حّيز خاص و، والمجتمع المدني خارج الدولة قائم على اقتصاد السوق، ثم أصبح يرتبط بتوسيع حقوق المواطنة خارج الدولة.

إذن لا يمكن تصور دولة دون مجتمع كما لا يمكن تصور مجتمع دون دولة، أي قوانين وأنظمة ومؤسسات لحفظ النظام والأمن وحماية أرواح وممتلكات المواطنين.

من خصائص المجتمع المدني، انه مجتمع متعدد وتعددي، وهو يعني التنوع والاختلاف بل الصراع أحيانا على الرغم من قيامه على تضامنات جزئية، ولعل ذالك احد مصادر نمو السياسة ومبرر وجودها. والتعدد والاختلاف هو مصدر حركة واغناء وتطوير عكسه هو السكون والثبات وعدم التطور[٩].

وفي لقاء مع حسين درويش العادلي (الأمين العام للتيار الإسلامي الديمقراطي) بجريدة الصباح البغدادية، ينفي وجود مفهوم للمواطنة ويعتبرها مبدأ إذ يقول:-

((أرى إن المواطنة مبدأ وليس مفهوم، ومرجعيتي الأساس في كافة كتاباتي السياسية هي القواعد المعيارية للدولة المدنية الحديثة، فلا يصح الحديث عن الدولة كجماعة سياسية ودونما مواطنة وديمقراطية وحريات راسخة ومجتمع مدني واقتصاد حر، فعلى أساس هذه المقومات تصاغ منظومة الدولة من دستور وقوانين ومؤسسات وثقافة وهوية، واعتقد بأن جميع إشكال الدولة الطائفية والقومية والاشتراكية هي نمط لا يلتقي وجوهر الدولة المدنية الحديثة، لأنها تستبدل رابطة المواطنة بروابط عرقية ودينية وطائفية وافتراضية))[١٠].

وبالمجمل لا يمكن الحديث عن الدولة المدنية من دون ترابط بنيوي بين المواطنة والديمقراطية كجوهرين لإنتاج الدولة، أن المواطنة الحقة هي وليدة النظام الديمقراطي القائم على مبدأ سيادة الشعب والاعتراف والتمكين لحق رعايا الدولة وفي طليعتها المساواة والتكافؤ وحق الاختيار والمشاركة

السياسية. أن الدولة الديمقراطية تعني أن المواطنة الصالحة والفعالة تمثل إمكانية مثلى لتكريس سيادة القانون وحكومة الشعب، ومن هنا أيضا تنتج التبادلية العضوية بين الديمقراطية والمواطنة، إذ تكون المواطنة على أساس هذه التبادلية المنطلق للمطالبة بالديمقراطية لغرض صنع السلطة المتأتية من خلال حق المشاركة لأن الديمقراطية في حقيقتها تعني حكم ممثلي الشعب بموجب القيم الديمقراطية وعلى رأسها قيم المواطنة الحقة والفعالة.

مصادر الهوية حسب تصنيف هنتكتون

لدى الناس عدد غير محدد تقريبا من المصادر المحتلة للهوية، وتلك المصادر تتضمن بالدرجة الأولى:- (١١)

١- السمات الشخصية / وتشمل

العمر، السلالة، الجنس، القرابة (قرابة الدم)، الاثنية (القرابة البعيدة) العرق.

٢- السمات الثقافية / وتشمل:

العشيرة، القبلية، الاثنية (معرفة كطريقة للحياة)، اللغة، القومية، الدين، الحضارة،

٣- السمات الإقليمية / وتشمل:

الجوار، القرية، البلدة، المدينة، الإقليم، الولاية، المنطقة، البلد، المنطقة الجغرافية، القارة، نصف الكرة الأرضية.

٤- السمات السياسية / وتشمل:

الانشقاق ضمن الجماعة، الزمرة، القائد، الجماعة ذات مصلحة معينة، الحركة، القضية، الحزب، الأيديولوجية، الدولة.

٥- السمات الاقتصادية / وتشمل:

الوظيفة، الشغل، المهنة، مجموعة العمل، المستثمر، الصناعة، القطاع الاقتصادي، الاتحاد العمالي، الطبقة.

٦- السمات الاجتماعية / وتشمل:

الأصدقاء، النادي، الفريق، الزملاء، مجموعة وقت الفراغ، المكانة الاجتماعية.

يحتمل إن يكون أي فرد مرتبطا" في كثير من هذه المجموعات، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة أنها مصادر هويته. فقد يجد الشخص مثلا في عمله أو بلده مقيتا ويرفضه برمته، فضلا عن كون العلاقة بين الهويات ذاتها معقدة، العلامة المميزة عندما تكون الهويات منسجمة في المطلق، لكن أحيانا قد تفرض هوية ما كهوية الأسرة وهوية العمل متطلبات متنازعة على الفرد. أما الهويات ضمنا في الهويات الأضيق، والهوية الأصغر التي هي في إقليم ضمنا على سبيل المثال، قد تضارب مع الهوية الأكبر، التي هي في بلد معيناً ضمناً وقد لا تتضارب، فضلا عن ذلك فأن الهويات التي من نوع واحد قد تكون حصريا أو لا تكون. الناس مثلا قد يؤكدون على ازدواجية القومية ويدعون أنهم ايطاليون أو أمريكيون في آن معا، غير آن من الصعب أن يؤكدوا على ازدواجية الدين، ويزعمون أنهم مسلمون وكاثوليك في الوقت ذاته. وتختلف الهويات في شدتها أيضا وغالبا ما تتنوع الشّدة عكسيا في مجالها ويتميز الناس على نحو شديد بعائلتهم أكثر مما يتميزون بحزبهم السياسي، ولكن ليست تلك هي الحال باستمرار فضلا عن تنوع السمات البارزة في الهويات من كل الأنواع بالتفاعلات بين الفرد أو المجموعة وبيئتها.

المطلب الثاني: أزمة الهوية

قد تبتعد الهوية عن مجتمع ما وفي ظروف زمنية محددة، ولكنها سرعان ما تعاود لبناء نفسها، فالمجتمعات المأزومة تعاني خللا" تركيبيا" في بنائها يقودها في بض الأحيان إلى التفكك والتشرذم تحت عناوين وهويات فرعية (ثانوية) لا تقوى على الصمود والاستمرار لوحدها نتيجة للتزاحم المفترض فيما بينها، أو مع محيطها الإقليمي والدولي. العراق بعد ٩/٤/ ٢٠٠٣ ومن خلال تعرضه للاحتلال والتدمير في بناه التحتية جميعا، وتعرض مؤسساته القانونية والشرعية للتدمير، فقد دخل مرحلة الخطر، وأصبحت وحدته الوطنية مهددة بالشظية وغابت هويته الوطنية، تحت عناوين الهويات الفرعية القومية والدينية والطائفية ودخل في مرحلة مقدمات الحرب الأهلية الطائفية. ولقد ساهمت القوى السياسية بمختلف اتجاهاتها على تفتيت الهوية الوطنية، وفي لقاء مع المفكر هاني فحص يقول أن الإسلام السياسي العراقي هو الذي يقود الشمولية الآن، بعد أن كانت هناك شمولية الحزب الواحد، إذ أن جميع هذه ألأحزاب الإسلامية هي طائفية، وأن كانت ترفع شعارات الوحدة والتسامح والتسليم لهذه الأحزاب ، يعني التسليم لمبدأ الإقصاء والانغلاق، ورفض الآخر، أن المعيار الحقيقي للتعايش وقبول الآخر هي المواطنة(١٢).

وفي تعليق حسين العوادي، حول ازدواجية هوية الأحزاب الإسلامية العراقية القابضة على السلطة ألان، يقول أن ازدواج الهوية أفقد التيارات الإسلامية القابضة على السلطة لونها الإسلامي أو الإيديولوجي، إذ أنها أنتجت دستوراً أقرب للعلمانية وهي تحميه، وتمارس في ذات الوقت صراعا" فيما بينها ضمن مربع السلطة على الثروة والسلطة، مما جعل هذه التيارات الإسلامية تضّيع هويتها بصريح العبارة(١٣).

إن اليقظة المتأخرة بعض الشيء لجميع اللاعبين السياسيين، وشعورهم بحافة الهاوية، إزاء نزيف هائل من الدماء العراقية، جعلهم يتراجعون بعض

الشيء، لان الخسارة سوف تعم الجميع، ومن هنا تحديداً تراجع العنف ومعه تراجع شبح الحرب الأهلية، وعاد الجميع للبحث عن المشتركات مع الآخر لتجسير الهّوة التي خلفها الاحتلال، وأنانية رجال السياسة لقد عاد الجميع للبحث عن الهوية العراقية بعد أن ضاعت أحلام القوميين قبلهم في أحلال القومية العربية الواحدة، وأصبحت معطيات الواقع هي أقرب لتبني الهوية المحلية (الهوية الوطنية العراقية) وهي هوية المواطنة المستقبلية.

أن قراءة سريعة لأزمة الهوية عالميا" نجد أنها ليست مشكلة مجتمع بذاته، بل هي مشكلة مجتمعات عدة كما يصفها هنتكتون، إذ يقول، ليست أميركا فريدة في أن لديها مشكلة هوية، النقاشات الوطنية سمة عالمية لزمننا، ففي كل مكان تقريباً تساءل الناس وأمعنوا النظر وأعادوا تعريف ما هو مشترك لديهم وما يميزهم عن الشعوب الأخرى:- من نحن؟ والى أين ننتمي؟ فاليابانيون يتنازعون على ما إذا كان موقعهم وتأريخهم وثقافتهم تجعلهم آسيويين؟ أو أن ثروتهم وديمقراطيتهم وحداثتهم تجعلهم غربيين؟ لقد وصفت إيران بأنها ((امة تبحث عن هوية)) وجنوب أفريقيا ((منشغلة في البحث عن هوية)) والصين كذلك سوريا والبرازيل حسب رأي هنتكتون تواجهها أزمة هوية، أما كندا فتواجه ((أزمة هوية مستمرة)) والدانمرك ((أزمة هوية حادة)) والجزائر ((أزمة هوية دموية مدمرة)) وتركيا (أزمة هوية فريدة) تقود إلى جدال ساخن حول (الهوية الوطنية)، وروسيا (أزمة هوية عميقة)، تعيد فتح جدال القرن التاسع عشر الكلاسيكي بين ذوي النزعة السلافية وذوي النزعة الغربية، في ما يتعلق بكون روسيا بلدا أوربيا عاديا أو بلدا آسيويا مختلفا بشكل واضح. وفي المكسيك تتقدم أسئلة حول هوية المكسيك إلى الواجهة. الشعب الذي عرف بألمانيتين مختلفتين ديمقراطية

وأوربية غربية تواجه شيوعية واو ربيه شرقية، يناضل لإعادة خلق هوية ألمانية مشتركة لقد أصبحت أزمات الهوية الوطنية ظاهرة عالمية(١٤).

من خلال ما تقدم اتضح أن العالم بأجمعه تقريبا مأزوم بقضية اسمها الهوية، وقد تكون هنالك عوامل مهمة أدت إلى بروز الهويات الثانوية والتي أصبحت تشكل عبئا" على الهويات الرئيسية أو التقليدية، ومن بين أهم هذه العوامل، هي التطور التكنولوجي، وولوج العالم مرحلة العولمة بكل أشكالها، وبروز دور الأقليات في التعبير عن ذاتها من خلال استخدام تقنيات والاتصالات والأعلام والمناخ الدولي المشجع لها. والعامل الآخر هو التحول الديمقراطي، ونهاية الأيديولوجيات التقليدية، وبروز دور الاقتصاد الحر كسمة عامة ولازمة في اغلب أرجاء العالم(١٥).

المبحث الثاني

أزمة الهوية في دستور العراق ٢٠٠٥

إذا ما تناولنا أزمة الهوية العراقية في دستور جمهور العراق ٢٠٠٥، فقد نجد ذلك واضح من خلال الأطروحات المتقاطعة بين السياسيين ورجال الفكر الذين يحاولون أعادة صياغة، أو تأسيس هوية موحدة تعني العراق. يقول الدكتور فالح عبد الجبار(١٦).

ثمة قلق في العالم العربي حول عروبة العراق، ولهذا القلق أبعاد شتى منها ما هو وجيه وما هو ملتبس، وفيها ما هو مغرض فالمحيط العربي يشعر بالقلق من وجهة العراق المستقبلية، فمخاطر حرب أهلية أو تقسيم أو أن يدير العراق ظهره إلى العالم العربي، في البدء كانت الضجة حول ((أمركة العراق)) ولما فشل الأمريكيون في ضبط التطور على الوجهة التي يرغبون باتجاه عراقي ليبرالي اندلعت الضجة الكبرى حول ((عروبة العراق)) والمقصود مسودة الدستور الدائم التي صدرت بعد صراعات في ٢٨ آب

٢٠٠٥ وبالتحديد المادة الثالثة من الباب الأول (العراق بلد متعدد القوميات والأديان،والمذاهب، وهو جزء من العالم الإسلامي ، والشعب العربي فيه جزء من الأمة العربية)[١٧].

وهناك إشكالية أخرى في الدستور العراقي وهي الهوية الدينية إذ حددت الإسلام دين الدولة ومصدراً أساسياً للتشريع، في المادة الثانية فقرة أولى (الإسلام دين الدولة الرسمي) بالرغم من ان الدولة لأدين لها، بل هي محايدة وان الإسلام هو دين الأغلبية الساحقة من المسلمين اللذين تعتبر نسبتهم ٩٥% من الشعب العراقي فضلا" عن ورود مصادر أساسية أخرى للتشريع ثم ورود نص أخر (الفقرة ١٠) من المادة الثانية / أولاً– يقول (لايجوز سن قانون يتعارض مع ثوابت أحكام الإسلام) أما الفقرتان التاليتان المتعلقتان بالديمقراطية والحريات، حيث نصت الفقرة– ب– (لايجوز سن قانون يتعارض مع الحقوق والحريات الأساسية الواردة في هذا الدستور) وهكذا يحصل التوازن والتوفيق بين اتجاهين متعارضين (الاتجاه الديني، والاتجاه المدني) لكن الفقرة "ثانيا" تأتي لتقول يضمن هذا الدستور (الحفاظ على الهوية الإسلامية لغالبية الشعب العراقي).

إن هذه النصوص تعكس ارتباكا حقيقا في الصياغ لتحديد هوية العراق إذ نجد أن الارتباك فيها من حيث الصياغة ناهيكم عن الفهم المشترك والثقة بين الإطراف. كما يقول الكاتب العراقي عبد الحسن شعبان، ويواصل تعليقه على ذلك، في كيفية الوصول إلى سبيل للتخلص من أصابع المفسرين والمؤولين خصوصا في ضل اختلاف الفقه والمجتهدين والاجتهاد تاريخيا؟ ويستطرد متسائلا ما لكم يكن كافيا القول ان الإسلام دين الدولة (وخصوصا أنها فقرة واردة في النصوص الدستورية السابقة)، أو دين الأغلبية الساحقة للشعب العراقي، لكي تعطية المنزلة العلوية، وبالتالي سيكون أمر مفهوما

مراعاة ذلك عند صياغة أي قانون أو تشريع ثم ماذا لو حصل اختلاف حاليا بين نص دستوري يفسره الإسلاميون بشي، وبين الديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات العامة ، التي يمكن تفسيرها بشي أخر؟ فلمن ستكون الغالبية خصوص بين المصادر الإسلامية التي يعتبر الإسلام واحدا منها؟[١٨] أذا كان معظم سكان العراق مسلمين وهويتهم أسلامية، فان غالبية سكان العراق، ناهيك عن تاريخه وتكوينه الثقافي، عربية أيضا، حيث يؤلف العرب نحو ٨٠% من المجتمع العراقي، وهم الذين طبعوا هويته التاريخية المعاصرة، وكانوا أساس بناء دولية الحديثة من ٢٣ أب ١٩٢١. لقد انتقدت الجامعة العربية مسودة الدستور العراقي بشدة وعلى لسان أمينها العام عمرو موسى، مما دعى لجنة صياغة الدستور وبعد ضغوط كثيرة داخلية وعربية إلى أعادة النظر في النص. وصرح السيد جلال الطلباني، رئيس جمهوري العراق، ان التعديل الذي تم الاتفاق علية مع السيد عمرو موسى سيتضمن (ان العراق عضو فعال ومؤسس وفاعل في جامعة الدول العربية ويلتزم ميثاقها).

ومع إن هذا النص يرتب التزامات قانونية وسياسية، ألا إن النص الخاص باعتبار العراق جزءا من الأمة العربية، له وقع وجداني اعتاد علية العراقيين وأصبح صيغة ملازمة للدساتير العراقية وليس فيه أدنى ألحاق ضرر أو أذى بأي جهة أو تكوين[١٩] ان وجود قومية ثانية هي الكردية وأقليات قومية أخرى كالتركمان والكلدو آشوريين، لايمنع من تحديد هوية العراق، وذلك ليس افتئاتا على احد أو تغولا على حقوقه التي ينبغي تأمينها واحترامها كاملة، فليس ذلك منحة أو هبة أو هدية من احد، بل هو أقرار بواقع الحال مثلما هو وجود أديان أخرى إلى جانب الدين الإسلامي، مثل المسيحية، واليزيدية، والصابئية التي نص عليها الدستور، لا يمنع من الإقرار بالهوية الإسلامية فمثلا إيران هي بلاد فارس، رغم أد الفرس ليسوا

أكثرية، فهناك الكرد والبلوش والعرب، والتركستانيين والاذريين وغيرهم، وتركيا بلد الأناضول مع وجود أقليات كبرى مثل الكرد والأرمن والعرب وغيرهم، ومثلما هو الأمر في العراق يستوجب حلا ديمقراطيا. إنسانيا وفقا للمبدأ القانوني الدولي وإعلان حقوق الأقليات لعام ١٩٩٢ وبالانسجام مع المعايير الدولية لحقوق الإنسان، وذلك بتحديد علاقتها مع شقيقها الشعب العربي أو الإيراني أو التركي أو غيرها.[٢٠]

العروبة أم القومية العربية يجري استخدام مصطلح العروبة في مختلف الأوليات السياسية القومية والدينية والماركسية بمعنى مرادف لمصطلح القومية العربية، لكننا لا نرى ذلك، ونعتقد بوجود فرق كبير أو أساسي بين العروبة والقومية العربية. ان فك الازدواج بينهما لا يساعد فقط على توضيح المقصود من حيث المعنى اللغوي والسياسي فحسب وإنما يساعد على تضييق شقة الخلافات بين التيارات الثلاثة. ان العروبة هي انتساب إلى العرب وهي مصدر على وزن فعولة كعمومة من العم وإخوة من الأخ وأبوة من الأب وخؤولة عمر، يقال عروبة محمد وعلي وعمر. أي أنها تعني الانتساب المجرد عن المعنى السياسي ولا تصلح لغير الانتساب إلى العرب. إما القومية فهي مصدر من القوم أي الجماعة وبالضبط جماعة الرجال. جاء القران الكريم ((لايسخر قوم من قوم ولا نساء من النساء)). ومن الشعر الجاهلي ((قوم إل حصن أم نساء)) أنها تعني أي قوم لكن العروبة لا تعني إلا العرب[٢١].

في التطور التاريخي انسلخ مصطلح القومية عن جذره اللغوي فأصبح معناه قريبا من معنى الأمة. وبعد ظهور القوميات الأوربية في مواجهة إقطاع الكنيسة وكطريقة لتقسيم اجتماعي جديد لا يقوم على أساس الذين أصبحت القومية تعني نوعا من الأنماط السياسية العلمانية وأخذت معناها

كاملا في مواجهة الدين. فهناك قومية ألمانية تصارع دين الكنيسة وقومية ايطالية تخرج على شروط البابا. وقد كتب لهذه القوميات ان تنتصر على الكنيسة فتظهر الدولة القومية بديلة للدولة الدينية. ان المعنى العلماني قائم في القومية وقد ظل مرتبطا بها وسيبقى كذلك لكنه ليس قائما في العروبة[٢٢].

إن القومية مصطلح لا يفهم علميا إلا إذا كان مجردا عن الدين وان تحميله مفهوما دينيا يعني خروج القومية عن إطارها التاريخي الصحيح. وهو شرط لا يلتزم به مصطلح العروبة الذي يتحمل مفهوما دينيا دون أد يخل بمقوماته، وقد لأتكون العروبة دينية لكنها ليست مصطلحا ضد الدين. وبهذا يجوز إسناد العروبة إلى النبي محمد ونسبة العروبة إليه. لكن لا تجوز نسبة القومية إلى النبي ولا إلى الإسلام أو أي دين أخر.

لقد استوعب الرسول علية السلام هذا المعنى وعلية جرى في أحاديثه فيخطب ﷺ في الناس قائلا ((أيها الناس.. ليست العروبة بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان ((اللغة)) فمن تكلم العربية فهو عربي)).[٢٣]

وعندما يسأله الصحابي واثلة بن الاسقع:-

يا رسول الله امن العصبية أن يحب الرجال قومه؟

يجيبه:-

- لا ولكن من العصبية ان ينصر الرجل قومه على الظلم.[٢٤]

إن انتصار الأنساب لقومه لا يعني ظلم الآخرين، أو تأييد الباطل، وهذا ما ورد من نص الحديث الشريف ((انصر أخيك ظالما أو مظلوما)) ونصرة المظلوم معلومة ولكن نصرة الظالم، هي بالوقوف أزاءه لتصحيح موقفة وتقويمه على الطريق القويم.

إن العرب ومن خلال تاريخهم لم يظلموا قومية أخرى بهدف الاستئثار لأنفسهم، بل كانوا دوما امة رائدة وقائدة لمجتمعاتها بمختلف انتمائها وأعراقها، وهكذا لم يطرق التاريخ اسما عن وصول نزاع بين العرب وغير العرب على أساس قومي، بل كانت دائما عرى المحبة والإخوة والتعاون هي السائدة.

إن المعيار الحقيقي للانتماء هو المساواة، وهذه تفرض شروطها على الجميع لكي ينصهروا في بوتقة الهوية الوطنية، ورابطتهم الأعم والاشمل. هي المواطنة.

الخاتمة

لم تعد الحاجة إلى الهوية حاجة محلية فقط، فقد أصبحت شغلا شاغلا للعديد من دول العالم، ونحن كجزء من هذا العالم وجدنا أنفسنا بعد زلزال الاحتلال وأثاره نبحث عن هوية ، ونحاول إعادة تعريف أنفسنا يعد صراع دموي عنيف من التجاذب القومي والطائفي، لكي نشكل هذه الهوية تحت لافته مقبولة وتشكل قاسم مشترك بين الجميع ألا وهي المواطنة. ولكي ننجح بذلك، علينا التنازل لبعضنا البعض، والتسامح والعفو بيننا، وطي

صفحات الماضي المريرة، والانفتاح على المستقبل وعدم استحضار التاريخ ألا بصفحاته الناصعة والمشرقة والجامعة للجميع دون تفريق، والتخلص عن هواجس وضنون وإلام الماضي. علينا ان نتقدم وان لا نظل نراوح في مكاننا.

الدستور هي وثيقة الشعب، وهي القاسم المشترك لإقرار الحقوق وتحقيق المساواة والوحدة في ذات الوقت، وعلينا ان نعيد كتابة هذه الوثيقة بعيدا عن التدخل الأجنبي وبروح التعاون وان نبتعد فيه عن أي نصوص تعيدنا للماضي لان الدستور هو قوانين الحاضر والمستقبل، وان نبتعد عن اللغة الاقصائية والطائفية، وان ندون المشتركات، ونزيد من زخم الحرية وحقوق الإنسان، وكل ما يعزز روح وقيم المواطنة الحقة.

Abstract

We discusses the "ethnic paradigm" that currently prevails in analyses of Iraqi history and politics. While acknowledging the strong forces associated with ethnic and sectarian loyalties in the country, we points to three important indicators of the surviving Iraqi nationalist sentiment that cut across these ethno-sectarian categories. It highlights the misfit between Western approaches to

Iraqi politics and indigenous Iraqi political thinking on ethnicity and sectarianism, and pays special attention to the implications for the debates about Iraqi unite.

الهوامش

(١) صومائيل– ب– هنتكتون / من نحن– التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية، ترجمة حسام الدين خضور، دار الحصاد – دمشق / ط١ ٢٠٠٥، ص٣٧.

(٢) حسين درويش العادلي، المواطنة دونما اشتراطات تغدو سجنا للحرية الإدارة، جريدة الصباح البغدادية، العدد ١٣١٩ في ٢٠٠٨/٢/١٢، ص١٢.

(٣) المصدر نفسه، ص٦٣.

(٤) سليم الحص، الهوية والقضية، مجلة المستقبل العربي، بيروت، العدد ٣١١ لسنة ٢٠٠٥، ص٦٣.

(٥) المصدر نفسه ص٦٤.

(٦) سليم الحص، العروبة والعولمة، مجلة المستقبل العربي، بيروت، العدد ٣٢٦ نيسان /٢٠٠٦، ص١٠.
(٧) ادوار خراط، الأصالة الثقافية والهوية الوطنية، مجلة العربي الكويتية، العدد ٥٥١ لسنة ٢٠٠٤، ص٢٨.
(٨) المصدر نفسه، ص٢٨.
(٩) عبد الحسين شعبان، مفهوم المجتمع المدني بين التنوير والتشهير، مجلة العربي الكويتية، العدد ٥٩١ شباط ٢٠٠٨ ص٢٦.
(١٠) حسين درويش العادلي، مصدر سبق ذكره، ص١٢.
(١١) صومائيل.ب. هنتكتون، مصدر سبق ذكره، ص٤٣.
(١٢) هاني فحص، برنامج حوار، قناة الحرة عراق، ٢٠٠٨/٢/٣.
(١٣) حسين العوادي، أمين عام التيار الإسلامي الديمقراطي العراقي، قناة الحرة عراق ، برنامج بالعراقي ٢٠٠٨/٢/٣.
(١٤) صومائيل.ب. هنتكتون، مصدر سبق ذكره، ص٢٨.
(١٥) المصدر نفسه، ص٢٩.
(١٦) فالح عبد الجبار، التوافقية والدين والدولة وهوية العراق، مجموعة باحثين في كتاب مأزق الدستور(نقد وتحليل)، صادر من معهد الدراسات الإستراتيجية، ط ٢٠٠٦ بغداد –بيروت، ص١٠٧.
(١٧) دستور جمهورية العراق ٢٠٠٥/ الباب الأول.
(١٨) عبد الحسين شعبان، رؤية في مشروع الدستور العراقي الدائم، مجلة المستقبل العربي، بيروت، العدد ٣٢٠ لسنة ٢٠٠٥، بيروت، ص
(١٩) عبد الحسين شعبان، مصدر سبق ذكره، ص١٠٣.
(٢٠) عبد الحسين شعبان، المشهد العراقي الراهن: الاحتلال وتوابعه في ضوء القانون الدولي، مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٩٧، بيروت ٢٠٠٣، ص٦٣.
(٢١) حسن العلوي، الشيعة والدولة القومية في العراق ١٩١٤– ١٩٩٠– ط١ دار نشر روح الأمين، بلا ، ٣١٧.
(٢٢) المصدر نفسه، ص٣١٧.
(٢٣) محمد عمارة، الإسلام والعروبة والعلمانية، ص١٥، تهذيب تاريخ أبن عساكر، ج٢ ص١٩٨، طبعة دمشق.
(٢٤) المصدر نفسه ، ١٩٨